

الفصل السادس

المقاومة والتواضع والنفي

ظل رؤساء العشائر يستهزئون بمحمد ﷺ ويشجعون الآخرين على انتقاده وإهانته، كان يُطلب من الرجل الذي ادعى النبوة أن يأتي بالمعجزات والأدلة المحسوسة، وكان الناس يعترضون على اختيار الله لرجل لا يتمتع بسلطة سياسية، ويمشي في الأسواق دون أي علامة تميزه عن غيره من الرجال، فكانوا يسخرون من الرجل ومزاعمه بقدر ما كانوا يسخرون من الرسالة.

ومع ذلك، وكما رأينا، فقد صمد النبي ﷺ لكل ذلك. وعندما جاء أحد زعماء قريش، وهو عتبة بن ربيعة، ليعرض عليه المال والجاه، كان رد النبي ﷺ قبل كل شيء أن استشهد بالقرآن مطولاً:

﴿حَمْدٌ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ
 عَاقِبَتَهُ. قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
 أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ مِمَّا
 نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِيْءَ آذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا
 عَمِلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ
 وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ٦ الَّذِينَ لَا
 يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴿قُلْ أَيُّكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَفْوَاجَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (2).

ومضى النبي ﷺ في تلاوته حتى بلغ الآية (38) التي تذكر أولئك الذين يسجدون، وعندما وصل إلى تلك الآية، سجد تعظيماً للواحد الأحد. كان عتبة قد جاء ليعرض عليه الثروة وجاء هذه الدنيا، فأصبح يواجه رجلاً يسجد بدافع من إيمانه بالحي الذي لا يموت ويعبر بذلك عن رفضه الواضح للعرض الذي قدم له للتو، وقد تأثر عتبة تأثراً عظيماً جراء شكل الرسالة القرآنية ومحتواها، وعاد إلى قومه واقترح عليهم عدم معارضة هذه الرسالة، لكنهم كانوا مقتنعين أنه قد سحر جراء عظمة تلك الكلمات ولم يعيروا اهتماماً لنصيحته وواصلوا عمليات الاضطهاد.

الجهاد

أما النبي ﷺ فقد صبر، وكلما هاجمه خصومه كان يتلو القرآن عليهم ليجيبهم ويحمي نفسه ويقاوم، وهذا ما علمه الوحي في هذه الآية، التي كانت المرة الأولى التي وردت فيها كلمة «الجهاد» في القرآن:

﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَجَاهِدُوهُمْ بِإِيمَانِكُمْ كَبِيرًا﴾ (3).

أمام مختلف أنواع الضغوط، من أخفها إلى أكثرها عنفاً، تلقى محمد ﷺ آية دلته على طريق المقاومة ووسيلتها التي

سوف يقوم بها - «الجهاد» - إن ما نجده هنا هو المعنى الأول والأساسي لمفهوم الجهاد المشتق من «جاهد» أي «بذل الجهد»، ولكن أيضاً، في هذا السياق، «المقاومة» (أي مقاومة الاضطهاد والقمع). فالله يأمر رسوله بأن يقاوم سوء معاملة قريش له بالاعتماد على النصوص القرآنية التي هي في الواقع سلاحه الروحي والفكري ضد العدوان، فالذين يسخرون ويوجهون الإهانات ويقومون بالإذلال والهجوم والتعذيب والقتل، والذين يطلبون المعجزات والبراهين، يجيبهم النبي ﷺ دائماً بسلاح القرآن ودرعه، وهو الذي يشكل بحد ذاته - كما رأينا - المعجزة والبرهان، فالنصوص القرآنية تفجر القوة الحقيقية في الناس، التي تنطوي على القدرة على مقاومة أعمال الاضطهاد في هذا العالم وتتغلب عليها، لأنها تدعو إلى الحياة التي تتجاوز أوهام هذه الحياة: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤).

إن جوهر مفهوم الجهاد في سبيل الله محدد كلياً في هذا الاستعمال الأول لتلك الكلمة في سورة «الفرقان». إنه تمييز، من خلال معجزة الوحي الثنائي (الكون والنص القرآني)، لوجود الواحد الأحد، ومقاومة أكاذيب وإرهاب الذين لا تسيرهم سوى الرغبة في حماية مصالحهم وسلطاتهم أو ملذاتهم، إن الموقف الأول الذي يقتضيه هذا هو الترفع:

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٦١) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ (5).

وللفرقان أيضاً بعد أخلاقي آخر، كما تدل عليه الآيات السابقة إذ إن ما يميز المؤمن في هذه الحياة لا يقتصر على الإيمان فحسب بل هو أسلوب في الوجود والسلوك، وقد تسلم النبي ﷺ وصحابته بهذه المعرفة في أول الأمر وحاولوا نقل رسالتهم بحرية وكانوا يتجنبون في الوقت نفسه المواجهة. لكن زعماء قريش لم يعجبهم ذلك، وصعدوا أعمال الاضطهاد فيما كان الوحي ينزل المرة تلو المرة بتعاقب سريع، وقد تذرع المسلمون، شأنهم في ذلك شأن النبي ﷺ، بالمقاومة - بالجهد - مذكرين الناس بوجود الله الواحد الأحد وبالحياة بعد هذه الحياة وبيوم الحساب وبضرورة الأعمال الصالحة، وكان القرآن دائماً سلاح بصيرتهم الروحية ودرعهم في وجه الأعمال الوحشية التي كانوا يتعرضون لها.

غير أن هذا الاضطهاد بلغ من الشدة والاستمرار بحيث أصبح هذا الجهاد صعباً في بعض الأحيان، ففي أحد الأيام جاء بعض المسلمين إلى النبي ﷺ بينما كان مستلقياً في ظل الكعبة وسأله: «ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟» فقال النبي ﷺ: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب فما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!» (6).

لذا فقد كان عليهم أن يصبروا ويتحملوا ويثابروا ولا ييأسوا أبداً من الله ومشيتيه، كان النبي ﷺ يعلم أصحابه الربط الصعب بين الثقة بالله والألم، وقد أتاحت معاناة الألم المادي والمعنوي بلوغ مرحلة الإيمان التي يقبل فيها المؤمن الشدائد، والتي يمكن أن يشك المؤمن بنفسه دون الشك بالله، وتأتي قصة عمار رضي الله عنه الشاب لتكون درساً للمسلمين: فقد رأى بأمر عينيه أمه، ثم أباه، يُقتلان لأنهم رفضوا إنكار الله. ثم تعرض عمار رضي الله عنه ذاته للتعذيب بأقسى طريقة، وفي أحد الأيام، بينما كان يُعذب، ولم يعد يستطيع تحمل المزيد من العذاب، أنكر الله ومدح آلهة قريش. فأطلقه معذوبه، لكن شعوراً بالذنب سيطر عليه وأخذ يعذبه ولم يستطع التخلص منه، حيث إنه كان على قناعة بأن إنكاره لا يمكن التكفير عنه. فذهب إلى النبي ﷺ وهو يبكي، وأنبأه بسبب ما يشعر به من بؤس وشقاء وبشكوكة بقيمته ومصيره، فسأله النبي ﷺ عن معتقداته الصحيحة، فأكد له عمار بأنها لم تتغير وأنها ثابتة ومثينة، وأنه لا يجد في نفسه أي شك بإيمانه بالله ومحبته له، فهذا محمد ﷺ من روع عمار وطمأنه، حيث إنه فعل ما بوسعه، فلا حاجة لأن يلوم نفسه. بل نزل الوحي مؤيداً لذلك: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ (7)، وقال لعمار بأنه إذا تعرض ثانية للتعذيب مماثل لا يستطيع تحمله، فإن بإمكانه من أجل إنقاذ حياته أن يقول بضمه ما يكون معذوبه يريدون سماعه، ويثبت على إيمانه بالله وصلواته في قلبه.

وهكذا فقد كان النبي ﷺ يتفهم الموقفين: موقف الذين لم ينكروا إيمانهم أبداً حتى عندما كلفهم ذلك حياتهم، وموقف الذين تقادوا الموت، عند تعرضهم للتعذيب الذي لا يطاق، بأن أنكروا إيمانهم بأفواههم،

لكنه ظل ثابتاً في قلوبهم وعقولهم، بعد ذلك أصبح العلماء يعتمدون على هذا المثال، بين جملة أمور، في القول بأنه يمكن للمسلمين في حالات بالغة الخطورة تكون فيها حياتهم معرضة للخطر على أيدي قوة ظالمة، أن يقولوا بأفواههم ما يريد معذبهم أن يسمعه منهم، وهذا هو معنى «التقية» (التي تعني عملية التظاهر بشيء بخلاف ما في قلوبهم وعقولهم) وأصبحت جائزة، كما هي هنا في حالة عمّار، ولكن فقط حين يكون الفرد مضطراً للمحافظة على حياته في حالة بالغة الخطورة تتطوي على تعذيب لا يطاق، وسوف نرى أنه في أي موقف آخر، كان المسلمون يقولون الحقيقة، بصرف النظر عن الثمن.

المخاطرة

لم تكن مقاومة قريش موجهة إلى مجرد رجل ورسالة، ففي واقع الأمر، لو أن جميع رسل الله واجهوا الموقف نفسه - المعارضة والحق من جزء كبير من جماعتهم - فإن ذلك يعود إلى أن ما تتضمنه الرسالة التي أتوا بها كانت تتطوي على ثورة جذرية في نظام المجتمع.

يورد القرآن الكلام الذي كان يواجه به الرسل، في عصور مختلفة، عندما انطلقوا لتبليغ الرسالة إلى أقوامهم، كان الرد الأول في معظم الأحيان رفضاً للتغيير والخوف من فقد السيطرة، كما جاء في الرد على موسى وهارون من جانب قوم فرعون: ﴿أَجِئْنَا لَتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (8). إن فهم هذه العلاقة بالذاكرة والأجداد والعادات مسألة أساسية لفهم كيفية رد

فعل مختلف الأقوام عند مواجهتهم بالتحويلات التي كان لا بد أن تحدث على أثر اعتناق معتقد جديد، وبالتالي، وجوداً جديداً في جسم المجتمع، فرد العقل كان دائماً انعكاسياً وانفعالياً، لأن المخاطرة هي بالهوية والاستقرار اللذين يعتمد عليهما المجتمع المعني، وقد أحدث النبي محمد ﷺ، برسالته والتطور الذي كان يزداد وضوحاً في مجتمعه، ردود الفعل ذاتها باللغة الشدة، الأمر الذي جعل القرشيين، الذين اعتراهم الخوف مما بدا أنه يهدد خصائصهم، يعارضونه بوحشية ودون هوادة.

من البدهي أن قضية السلطة مسألة حاسمة: فجميع الأقوام الذين جاءتهم الرسل كانوا يعتقدون في أول الأمر أن الرسل لم يكونوا يسعون إلا إلى السلطة والجاه، ولم تكن حالة محمد ﷺ تشذ عن هذه القاعدة، فمن البدهي أن الناس ينطلقون من وجهة نظرهم في محاولة تفسير وفهم نوايا الرسل ومقاصدهم، ففي النظام البشري، لا يقوم المرء بالإطاحة بالتقاليد، وبالتالي بنظام اجتماعي وسياسي، ما لم يكن يسعى وراء السلطة، إن منطلق العلاقات الإنسانية يفرض هذا التفسير. وهذا ما يفسر شكوك وصمم الزعماء الذين يواجهون رسالة تنطوي على نتائج صريحة تؤثر على أولئك الزعماء، رغم أن محتواها بحد ذاته أبعد ما يكون عن تلك الاعتبارات.

ودعوة محمد ﷺ إلى الاعتراف بإله واحد، والتخلي عن الأوثان السابقة، والدار الآخرة بعد الحياة الدنيا، وإلى الأخلاق والعدالة، أطلقت ثورة حقيقية في عقول الناس وفي المجتمع على حد سواء، ولم يكن يهم كثيراً، بالنظر لكافة المعطيات، ما إذا كان يسعى وراء السلطة لنفسه أو

لأي طرف آخر؛ إن ما ظل بدهياً بحد ذاته هو أن عكس المنطلقات الذي انطوت عليه رسالته، التي كانت تتوجه إلى الدار الآخرة، قد زلزل الأسس التي تستند إليها السلطة الدنيوية.

وقد رأى المؤمنون الجدد أن الإيمان بإله واحد وإدراك مفهوم الأبدية فضلاً عن التعاليم الأخلاقية هي عناصر تحررهم الروحي والفكري والاجتماعي، وقد كانت نظرة قريش واضحة وفي محلها، فالنتائج التي تتطوي عليها معارضتهم الجذرية لرسالة تحرر جذري كانت بالغة الخطورة وتتطوي على تداعيات جوهرية لمصيرهم، فقد أحسوا، دون أن يكون بإمكانهم دائماً سماع أو فهم، مغزى التأكيد الجوهرية على الإيمان بالواحد الأحد، الذي يعبر على الفور عن تغيير صميمي وتحول عام للنظام.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ (٩).

هذه الآية تشير إلى وجود حدود:

﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا الْكَافِرُونَ ۝ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ (٦)﴾ (١٠).

أسئلة:

حارت قريش فيما يمكن أن تعمله لمنع انتشار رسالة محمد ﷺ. فقرر زعماءها إرسال وفد إلى يثرب لسؤال علماء الدين اليهود عن

طبيعة الوحي الجديد وصدقه. وكان يعرف عن يهود يثرب بأنهم يؤمنون بفكرة الإله الواحد، وكثيراً ما كان محمد ﷺ يشير إلى موسى عليه السلام، نبيهم، لذا فهم أفضل من يعبر عن رأي أو حتى من يقترح إستراتيجية لمساعدة قريش.

عندما استشيروا بشأن النبي الجديد، اقترح الحاخامات بأن يسأله المكيون ثلاثة أسئلة ليتبين لهم ما إذا كان ما يقوله حياً في الواقع أو أنه محتال، كان السؤال الأول عن قصة مجموعة من الشبان الذين نفاهم قومهم؛ والثاني عن رحالة عظيم الشأن بلغ أطراف الكون؛ والثالث كان طلباً مباشراً بتعريف الروح، غادر وفد قريش وهم مقتنعون بأن لديهم الوسيلة التي تمكنهم من إيقاع محمد ﷺ في فخ. فلما عادوا إلى مكة ذهبوا إليه وطرحوا عليه الأسئلة الثلاثة.

فأجاب على الفور تقريباً: «أخبركم بما سألتكم عنه غداً» (11).

لكن جبريل لم يظهر في اليوم التالي، ولم ينزل وحي على محمد ﷺ. كما أن جبريل لم يأت في اليوم الذي بعده، أو خلال الأربعة عشر يوماً الآتية بعد ذلك شعر زعماء قريش بالارتياح بعد أن تأكدوا بأنهم استطاعوا أخيراً أن يثبتوا نفاق «النبي المزعوم» الذي عجز عن الإجابة عن أسئلة الحاخامات، أما محمد ﷺ، فقد شعر بالحزن، ومع مرور الأيام، كان خوفه يزداد من أن يكون الله قد تخطى عنه: ودون أن يشك في الله، فقد عاد له الشعور بالشك بذاته الذي زادته سخرية خصومه منه، وبعد أسبوعين جاءه الوحي مع الإيضاح:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۚ (٢٤)﴾ (12).

هذه الآيات كانت تنطوي مرة أخرى على عتاب غياب ودرس: فقد ذكرت النبي ﷺ بأن مركزه ومعرفته يعتمدان على ربه، على الله الواحد الأحد الذي له الملك وحده، وأنه يجب ألا ينسى ذلك، هكذا يجب فهم عبارة «إن شاء الله»؛ فهي تعبر عن الحدود، عن شعور بالتواضع من جانب الذي يتصرف وهو يعلم بأن الله وحده هو الذي بيده كل ما يحدث، بما يتجاوز ما باستطاعة المرء قوله أو فعله. وليست هذه الرسالة قدرية بأي حال؛ فهي لا تعني أنه لا يجب على المرء أن يعمل، بل على العكس، بأنه يجب على المرء ألا يتوقف عن العمل وأن يكون دائماً مدركاً في ذهنه وقلبه لحدود القوة البشرية، فللمرة الثانية تعرض النبي ﷺ لعتاب العلي القدير، فمهما واجه المرء من شدائد، فإن قوته وحيثته تتمثلان في أن يظل واعياً لافتقاره للخالق.

ولم تأت الإجابات عن الأسئلة التي وجهت إلى النبي ﷺ إلا بعد مدة من الوقت، وقد كان التأخير ينطوي على تناقض ظاهري.

حيث إنه جاء لتعزيز إيمان المسلمين، وإرباك الذين تحدوا النبي ﷺ: ففجّره المؤقت عن الإجابة ثم الوحي الذي جاء بعد فترة من الوقت برّهناً على أن محمداً ﷺ لم يكن واضع الكتاب الذي كان يتنزل عليه وأنه كان بالفعل يعتمد على مشيئة ربه.

أشارت الإجابة عن السؤال عن الروح مباشرة - بالطريقة نفسها التي تمت تذكرته بها بشأن واجب التواضع - إلى العلم الأسمى للواحد الأحد:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) (13).

أما بشأن القصتين (قصة أهل الكهف وذي القرنين) فقد وردتا أيضاً في السورة (18)، سورة الكهف، كانت القصتان تنطويان على الكثير من المعلومات والتفاصيل التي لم يكن بوسع قريش وحاخامات يثرب توقعها ولم يكن النبي ﷺ يعرف أي شيء عنها قبل نزول الوحي. وقد تضمنت السورة ذاتها قصة موسى عليه السلام الذي انساق في لحظة من النسيان والغفلة إلى القول إنه بالنظر لكونه نبياً فإنه «يعلم». فاخبره الله لاحقاً بأن واجهه بمن هو أكثر علماً منه، وهو الخضر الذي ورد ذكره في القرآن، والذي علمه كيف يفهم علم الله الأسمى، كما علمه الصبر وحكمة التواضع والامتناع عن طرح أكثر مما ينبغي من الأسئلة (14).

فمن تجربة موسى عليه السلام (الذي كان قليل الصبر) إلى تجربة محمد ﷺ (الذي نسي افتقاره إلى الله) فضلاً عن الدرس الذي تم تلقيه لجميع البشر (الذين لم يؤثروا من العلم إلا قليلاً)، كل ذلك يذكر المسلمين بهشاشتهم واحتياجهم إلى الله، مهما كان وضعهم، وهذا الدرس يتجلى في سورة الكهف، بعد ذلك كان النبي ﷺ يهيب بكل المسلمين قراءة هذه السورة كاملة كل يوم جمعة كي يتذكروا، في كل أسبوع، كي لا ينسوا أنفسهم وكي لا ينسوا الله.

الحبشة

ازدادت عمليات الإهانات والاضطهاد مع تتابع نزول الوحي. ولم تعد الآن تقتصر على أضعف المسلمين بل تناولت أيضاً رجالاً ونساءً كان مركزهم من شأنه أن يحميهم، مثل أبي بكر رضي الله عنه. وكان محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان في حماية عمه أبي طالب، موضعاً للاستهزاء والسخرية، لكنه لم يتعرض إلى أذى جسدي، وبعد أن رأى محمد صلى الله عليه وسلم أن الوضع في مكة يزداد سوءاً، اقترح على المسلمين ما يلي: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»⁽¹⁵⁾.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعني ملك الحبشة، النجاشي، النصراني، الذي كان يلقى الاحترام من شعبه ويعدل بينهم⁽¹⁶⁾. فقد أخذ بعض المسلمين يستعدون للسفر وقام أخيراً عدد من الأفراد والأسر بمغادرة مكة سراً مهاجرين الهجرة الأولى: كان مجموعهم مئة شخص، اثنين وثمانين أو ثلاثة وثمانين رجلاً ونحو عشرين امرأة.

حدث هذا في عام 615، بعد خمس سنوات من بداية نزول الوحي وستين من بداية الدعوة العامة، كان الوضع قد أصبح بالغ الصعوبة، إلى درجة جعلت هؤلاء المسلمين يخاطرون بالذهاب إلى المنفى بعيداً جداً عن مكة، وكان من بين المهاجرين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته رقية، ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رضي الله عنه، لكنه عاد حين قابل، وهو في طريقه، أحد وجهاء مكة الذي أجاره، كما كان بينهم أم سلمة - رضي الله عنها - التي أصبحت لاحقاً زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم، والتي وصلت إلينا من خلالها مختلف الروايات عن الهجرة إلى الحبشة.

وقد اكتشف زعماء قريش بعد برهة وجيزة أن بعض المسلمين - ومن المفارقات أنهم لم يكونوا الأضعف والأكثر تأثراً - قد غادروا مكة. ولم يطل بهم الأمر حتى عرفوا المكان الذي توجه إليه المسلمون. وكان ثمة أسباب تدعوهم للقلق بشأن تلك الهجرة: إذا استطاعت هذه المجموعة الصغيرة من المسلمين الاستيطان في مكان آخر، فإن ذلك سيغني حتماً أنهم سيشوهون سمعة أهل مكة وربما يثيرون العداء ضدهم أو أنهم قد يقيمون تحالفاً ضدهم مع ملك كانوا يعلمون أنه يشاركهم الإيمان بإله واحد، بعد بعض الوقت من ذهاب المسلمين، قرر زعماء قريش أن يرسلوا إلى النجاشي مبعوثين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة - رضي الله عنهما - لإقناعه بعدم منح حمايته لأولئك المهاجرين وبأن يبعدهم إلى مكة، ذهب المبعوثان إلى بلاط النجاشي يحملان الكثير من الهدايا التي كانا يعرفان أن وجهاء الحبشة يقدرونها جداً، فقاما بمقابلة الوجهاء فرداً فرداً وأعطوهم الهدايا وحصلوا على تأكيدات بدعمهما عندما يقدم المبعوثان المكيان طلبهما للملك.

في مواجهة النجاشي

كان عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة يودان لو أن الملك يوافق على إعادة المسلمين دون سماع دفاع المهاجرين، لكن النجاشي رفض قائلاً إن الذين اختاروه ليحميهم لهم الحق في عرض قضيتهم، فدعا إلى اجتماع يحضره المبعوثان من مكة ووفد من المهاجرين المسلمين، واختار هؤلاء جعفر بن أبي طالب عليه السلام، الذي كان يتصف بالحكمة وبالفصاحة ليمثلهم ويجيب عن أسئلة الملك، سألهم الملك عن سبب هجرتهم ولاسيما عن ماهية الرسالة الجديدة التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم. شرح جعفر للملك

المبادئ الأساسية التي نزل بها الوحي والمتضمنة في تعاليم محمد ﷺ وهي: الإيمان بآله واحد ونبذ عبادة الأوثان، والأمر بوصل ذوي القربى وقول الحق ومقاومة الظلم.. إلخ، وأضاف جعفر أن قريشاً كانت تضطهد المسلمين بسبب هذه الرسالة، ولهذا قرروا اللجوء إلى الحبشة بجوار النجاشي الذي اشتهر بأنه حاكم عادل ومتسامح.

سأل الملك جعفراً ﷺ إن كان معه نسخة أو إن كان يستطيع تلاوة نص من آيات الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، أجاب جعفر بالإيجاب وأخذ يتلو بعض الآيات من سورة مريم:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ (١٦)
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا
بَشَرًا سَوِيًّا ۖ (١٧) قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ (١٨) قَالَ
إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ (١٩) قَالَتْ أَنِّي
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۖ (٢١)﴾ (١٧).

تأثر الملك ورجال البلاط بجمال النص الذي تلى عليهم بالعربية، وازداد تأثرهم عندما تمت ترجمته لهم وفهموا أنه يبشر بمعجزة ولادة عيسى. قال النجاشي: «إن هذا والذي جاء به عيسى جاء من مشكاة واحدة» (١٨). والتفت إلى مبعوثي مكة ليرفض طلبهما ويعلمهما أنه لن يسلم المهاجرين المسلمين وأنه سيظل يمنحهم ضيافة اللجوء.

خرج عمرو وعبد الله وهما يستشيطان غيظاً، لكن عمرو سرعان ما قرر أن يعود إلى النجاشي ليخبره عما جاء في هذه الرسالة الجديدة عن عيسى عليه السلام، وهو ما لا يتطابق على الإطلاق مع المعتقدات النصرانية. ففعل ذلك في اليوم التالي، وبعد أن أصغى له الملك أرسل يطلب جعفرأ ووفده وطلب معرفة المزيد عما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام، كان المسلمون يدركون خطورة هذا اللقاء: إن شرح الفروقات بين الدينين قد تجعل النجاشي يعيدهم إلى مكة، ومع ذلك فقد قرروا الالتزام بنص الرسالة وشرح ما جاء فيها بصدق. وعندما سأل النجاشي «ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟» أجاب جعفر رضي الله عنه بلا مواربة «نقول ما علمنا نبينا: إنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول». ولم يتم التطرق إلى كونه «ابن الله»، فأجاب النجاشي بأن أمسك بعضا وقال: «إن عيسى بن مريم لا يزيد عما قلتم إلا بمقدار طول هذه العصا»⁽¹⁹⁾. وقد تعجب رجال البلاط من جوابه وعبروا عن ذلك بسعال خفي، لكن النجاشي تجاهلهم وأمر بعودة مبعوثي مكة ومعهما جميع الهدايا التي جاء بها، وجدد ترحابه بالمسلمين وأكد لهم بأنهم سيجدون الحماية والأمن في أرضه.

كانت تلك نكسة كبيرة لأهل مكة، الذين سارعوا إلى الانتقام بتصعيد أذاهم للمسلمين بعد عودة المبعوثين.

أما جعفر رضي الله عنه وجماعته، فقد وجدوا بلداً نصرانياً، رغم كونهم منفيين فيه ولم يكونوا على دين أهله، إلا أنهم لقوا ترحاباً وحماية وتسامحاً فيه. كانوا قد قرروا قول الحق: في أشد اللحظات خطورة من مواجعتهم مع النجاشي، فلم يحاولوا تصادي الإجابة عن السؤال ولا كذبوا بشأن ما

قاله محمد ﷺ عن عيسى بن مريم عليه السلام. فقد غامروا في الواقع بأن تتم إعادتهم إلى مكة وتسليمهم، لكنهم لم يكونوا في وضع عمّار عليه السلام، الذي أنكر دينه جراء التعذيب لإنقاذ حياته، ففي هذه الحالة، وعلى الرغم مما كان ينطوي عليه الموقف من أخطار لم يكن أمامهم مهرب: لقد حافظ المسلمون على معتقداتهم، التي أعرّبوا عنها بصدق وأمانة، لم يكن لديهم خيار آخر سوى قول الحقيقة، وهذا ما فعلوه.

على أنه تجدر الملاحظة بأن جعفرًا عليه السلام بدأ بذكر نقاط التشابه بين الدينين السماويين، وقد بينت الآيات الأولى التي تلاها بوضوح أن مصدر الرسالة هو ذاته وأن المسلمين، في قبولهم للوحي الجديد، إنما يعبدون الإله ذاته الذي يعبدّه النصارى ويعترفون بنبيهم. كان المبعوثان من مكة هما اللذان حاولا إظهار الاختلافات بغية إثارة المشكلات، لكن جعفرًا عليه السلام سارع إلى القيام بجراحة بشرح رسالة دينه بما فيها من خصائص واختلافات، وكان مجرد وجود المسلمين في الحبشة رسالة أخرى للنصارى وهي أن المسلمين يعترفون من حيث الأساس بأن النجاشي صاحب مبادئ وعادل وأن هذا هو ما دعاهم إلى اللجوء في أرضه، لم يكن النجاشي مسلماً، لكنه أدرك تماماً المعنى المزدوج، الصريح والضمني، للرسالة التي جاء بها المسلمون: إلههم هو إله النصارى نفسه، بصرف النظر عن الاختلافات بين نصوصهم ومعتقداتنا؛ أما قيمهم المتعلقة بالاحترام والعدل فهي ذاتها بصرف النظر عن الاختلافات بين نصوص الدينين. وهكذا فقد سمع الملك هؤلاء الذين يؤمنون بدين آخر ورحب بهم.

بعد ذلك اعتنق النجاشي الإسلام وظل على اتصال دائم مع النبي محمد ﷺ. وقد مثله في مناسبة عرس، وصلى النبي ﷺ عليه صلاة الغائب عندما علم بوفاته، مكث معظم المسلمين المنفيين في الحبشة فيها حوالي خمس عشرة سنة، حتى غزوة خيبر في (630)، حين انضموا إلى النبي ﷺ في ذلك الوقت في يثرب، التي كانت قد أصبحت حينئذ المدينة، وعاد آخرون إلى مكة قبل ذلك عند سماعهم لأخبار إيجابية من مكة (مع أن بعضاً منهم عادوا ثانية إلى الحبشة)، لكن ما من أحد منهم لقي أي متاعب في مملكة النجاشي.

